اللغة العربية تماشي الأمة العربية إلى الأمام لأنها جزء حي منها

الأستاذ إلياس قنصل
(عاصمة الأرجنتين)

كل سلاح وصل الى يد الاستعمار ، استعمله ، محاولا القضاء على القومية العربية .

انزل الاستعمار على المدن العربية قنابله ، ووجه الى صدور ابنائها رصاصه ، وهدم ، وخرب ، وشرد ، واعتقل ، ما شاءت له مطامعه .

ثم حاول ـ وقد رأى ان بطشه المكشوف لم يجد ـ زعزعة اركان الوعي القومي العربي من الداخل، فرشد الانصار ، وجند الاعوان ، واشترى الضمائر ، ولكنه على الرغم من ذلك ، لم يستطع الوصول الى ما يبغي ، فقد كان هؤلاء الانصار والاعوان من القلة ، وكانت اليقظة الشعبية من الشمول ، بحيث اخفقت محاولاته ، وراي نفسه كما رآه العالم ، متعثرا بأذيال الفشل ، لا يكاد يلملم ذاته من حفره حتى يقع فى حفرة ثانية .

واذا كان الخذلان قد اصابه فى محاولاته ، فليس المعنى ان المعركة التي استهدفت لها الامة أو بعبارة أصح أن المعارك التي ساقها اليها ، كانت معارك هينة لينة ، كلا ، لقد كانت جولات عنيفة ، تركت فى جوانب الامة جراحا ضمدت بعضها ، ولا يزال بعضها ينزف بالدم ، الى الآن .

صوب الاستعمار حرابه الى سائر مقومات الامة العربية :

الى اخلاقها ، يريد ان ينفذ بالفجور الى مناعتها ، فينهار تماسكها .

الى تاريخها ، يريد ان يشوه معالمه الواضحة العالية ليزيل الاتصال بين الماضي والحاضر .

الى نشئها ، يبغي أن يبث فيه من الانفلات ما يذيب شخصيته المامولة .

الى اقتصادها ، يرمي الى وقفه عند حد محدود، فلا يتفاعل مع امكانيات النشاط .

الى كل شيء .

وقد كان « للغة العربية » نصيب وافر من تلك الحراب المصوبة التي تقطر بالسم الزعاف .

طلعت الدعوات العديدة تشير الى وجوب البحث فى « تطوير » اللغة ، ولم يكن القصد لا التطوير ولا ما يشبه ذلك من بعيد أو قريب .

كان القصد ايجاد البلبلة فى أجزاء الامة التي تتكلم هذه اللغة ، واحداث شكل من أشكال الفوضى قد يمتد الى عوامل لها علاقة وثيقة باللغة .

كان القصد منها ـ الى ذلك ـ شغل فئة من حملة الاقلام بالاخذ والرد والمماحكات والمناقشات البيزنطية ، وصرفهم عن اذكاء نيران الحماسة فى النفوس لمحاربة الاستعمار .

لا نقول ان جميع الدعوات التي تعالت مطالبة بالاصلاح ، كانت من ايحاء الاستعمار ، فقد تنزه بعضها، عن ذلك ، ولكننا نقول **ان معظمها كان مدفوعا من الاخطبوط المذكور .**

والذي يراجع تاريخ هذه الدعوات يجد ظاهرةمن اغرب الظواهر لا يمكن أن تكون من عمل الصدف :

كانت هذه الدعوات **تطل برؤوسها عندما يشتد ضغط الشعب مطالبا بالحقوق المغصوبة .**

ان هذه الدعوات لم تكن تظهر ابدا فى فترات السكون السياسي ، والاستكانة القومية وهي الفترات التي كانت حرية بأن تظهر أثناءها ، لان هذا الاصلاح – اذا صح ان مرماه الاصلاح – يحتاج الى درس ، لا يتم الا تحت ظلال الاطمئنان .

قال هؤلاء فيما قالوا :

ان اللغة العربية فوق مستوى الجمهور ، وانها وقف على طبقة معينة من الامة ، وان هذا عيب من عيوبها ، تلافيه ان تكتب بلغة الشعب بالعامية ...

ولو تم لهم ما ارادوا ، لقضي القضاء المبرم على واسطة التفاهم بين الاقطار التي تضمها الفكرة العربية

لقد رأى هؤلاء ان اللغة العربية – فى حالتها الحاضرة – تجمع السوري الى المراكشي ، كما تجمع المصري الى اليوتي ، كما تجمع العراقي الى اللبناني حتى لا يكون بين المجتمعين اي فارق ، مهما كان ، فكان المقيم فى أقصى القارة الاسيوية كالمقيم فى ادنى القارة الافريقية .

راي هؤلاء المطالبون باصلاح اللغة ذلك ، فهالهم **الامر الذي يكاد يكون منقطع النظير فى ادوات التفاهم، فعمدوا الى تفكيك هذه الوحدة ، وبرزوا بالنغمة « النشاز » : تحويل اللغة الفصحى الى العامية ،** اي وضع حدود او شيء كالحدود بين اللهجات المختلفة بحيث يصعب التفاهم بين قطر وقطر ، واذا لم يصعب، فلا اقل من أن يكون ثقيلا .

ولو كانت نية هؤلاء ما قالوه ، لدعوا الى رفع العامية من مستواها الى المستوى الذي تتقرب فيه من الفصحى كما يفعل الزمن دون ان يشعروا ، فالاصلاح الحقيقي هو ان تتجه الى الكمال ، لا ان تتحدر الى الناقص ، ومن البديهي الذي لا يكابر فيه ان الفصحى هي رمز الكمال ، لا العامية .

وقال هؤلاء فيما قالوا :

ان اللغة العربية ذات صرف معقد ونحو غامض ، وان الافكار تنصرف عنها لهذه الاسباب التي يستطاع ازالتها بمحو جميع العقد منها ، وملاشاة الغموض ، اي بترك الحبل على الغارب ، لمن يشاء ، ويتحول الاعراب فيها من قضايا منطقية ذات قواعد،الى مجموعة من عناصر التشويش التي لا يضبطها منطق ، ولا تنتظم فى قاعدة . وينسى هؤلاء او يتناسون **ان جميع لغات الدنيا التي تتداولها المحافل المحترمة لا تخلو من قواعد وقياسات وانظمة** وما اليها ، وان بعض اللغات التي يعتبرونها مثالية شواذ لا يقاس اليها ما فى لغة الضاد .

وقالوا فيما قالوا :

ان الاحرف العربية فى هندستها الراهنة ليست احرفا تماشي الحضارة التي بلغتها الدنيا ، وان الواجب يقضي باستبدالها بحروف فرنجية ، او بحروف لا هي بالفرنجية ، ولا هي بالعربية .

وما يرمون اليه من هذا الاقتراح واضح : **انهم يرمون الى وضع حاجز بين الجيل الحاضر والتراث العربي القديم الخالد ، انهم يرمون الى القضاء دفعة واحدة،على ثمرات الفكر العربي فى الاجيال الماضية** وينسون او يتناسون ان التراث الفكري العربي القديم لا يشكل مفخرة من مفاخر العبقرية العربية فحسب ، ولكنه يصل الينا ، وهو خلاصة التجارب الفكرية فى المدى العربي ، وهو عصارة الفلسفة العربية فى نظرها الى الحياة ، والى ما فى الحياة من مشاكل .

وقالوا فيما قالوا : اشياء كثيرة لا تحرج عن هذا النطاق ، ولكنها مفضوحة النيات ، مكشوفة المعاقل.

لقد استطاعت اللغة العربية ان تعبر عن ادق الخوالج الانسانية ، وان تستوعب دقائق الفنون والعلوم فى مختلف العصور الماضية ، فكيف تعجز الآن عن النهوض بهذه المسؤولية ، وقد سهلت أمامها الوسائل التي لم تكن متوفرة فى العصور الفائتة ؟ كيف تعجز الآن عن ذلك ، **وقد تكشف للعلماء كثير من اسرار تراكيبها ومشتقاتها كانت مغلقة على الذين نقلوا اليها العلوم والآداب من الامم الغربية ؟**

نحن لا ندعو الى الجمود .

اننا نعرف ان تقدم الحضاره يتطلب ان ترافق اللغة ما يظهر من اختراعات ، ولكننا نعرف كذلك **ان اللغة العربية فى وسعها ان تجاري التقدم مجاراة ليس بعدها زيادة لمستزيد ، فهي لغة لها اتساعها فى مفرداتها ولها دقتها فى جلاء اخفى ما تنطوي عليه النفس من شعور ، ولها غزارتها فى منح ما يتطلبه الراغب فى استيعاب مكنوناتها الدفينة ، ولها جمالها الذي لا يماثله اي جمال فى اية لغة اخرى .**

ان اللغة العربية فيها ((حياة)) يكاد المرء يلمسها كما يلمس الحياة في الكائن الحي الانساني ، وهي ، الى انها اداة للتعبير والتفاهم ، **آصرة من أواصر القومية كان لها عملها في الاحتفاظ بهذه الروح التي نجدها الآن في العالم العربي .**

والاستعمار لم يكن على خطأ ، حين وجد فيها ، **قوة من قوى العروبة** ، بقاؤها على جبورتها ، نذير له بأن الوحدة العربية التي يخاف منها ، باقية الاصول ، ينميها الزمن ، ويغذيها الجهد المخلص **اربعمائة سنة أو نزيد ، بقيت اللغة العربية تجابه الطغيان العثماني ، مجابهة ، خرجت منها فائزة منتصرة** ، وارتد الطغيان مدحورا مكسورا .

وعادت قوى الشر التي حشدها الاستعمار الحديث ، فشنت عليها الغارات المتواصلة ، ولم تكن النتيجة الا ما شاء الحق ، **وبقيت اللغة العربية في حصن حصين من مناعتها الطبيعية** ، ولم تؤثر عليها هجمات الموتورين الحانقين .

والقومية العربية تعرف **ان اللغة احد الاسلحة الفعالة في درء الاخطار المخيفة بها** ، وهي لذلك تحرص على سلامتها حرصا لا يمكن ان يتسرب اليه الوهن ، وهي لذلك تمر بالدعوات التي تبدو بين الحين والآخر مرور الاحتقار والامتهان ، لانها تدرك ان الداعين لا يضمرون لها الاخلاص ، ولو اضمروه لتوجهوا الى ايجاد الاصلاح الحقيقي ، لا الى هذه الحملات التي لم تعد تخدع أحدا .

ان لغة الضاد التي رافقت امتها في جميع الادوار وانبعثت منها الطرائف الخالدة ستظل تماشي هذه الامة في مراحلها الى الامام لانها جزء حي منها .